حول الموقف العثماني من هذه الأطماع الصهيونية الاستيطانية في فلسطين ١٨٧٦ ١٩٠٨

عماد احمد الجواهري

تطور المصالح الاستعمارية والاطماع الصهيونية في البلاد العثمانية :

شهدت البلاد العثمانية عموماً ومنها بلاد الشام تطورات مهمة خلال القرن التاسع عشر وذلك في اوضاعها الاقتصادية والاجتماعية ، وقد كان هذا التطور واضحا في اتساع حجم التجارة وتطور وسائل المواصلات(١) ونمو طبقة الملاكين في المدن وزيادة فعالياتها الاقتصادية والسياسية (٢) . وفي موجة المد الاستعماري الغربي الحديث للسيطرة على العالم اعتبرت الدولة العثمانية التي كانت تعاني من اضطراب عام في مؤسساتها كافة مجالا حيويا للنشاط الاستعماري. وهكذا يمكن تعقب الخطوات الاستعمارية خطوة خطوة وذلك من خلال ابراز اوجه التدخل المختلفة التي رسمتها القوى الاستعمارية والتي كانت في مجملها مشاريع استعمارية متعددة الاوجه واحدة الاهداف ولئن كان استغلال الدول الاستعمارية للاقليات والطوائف الدينية اسلوبا من اساليب نفوذ عجلة الاستعمار وسحقها للشعوب ، فلقد شهدت ولاية سورية العثمانية منذ فترة مبكرة من تاريخها الحديث محاولات القوى الاستعمارية لاستخدام الطائفة اليهودية (٣) ضمن خططها ومشاريعها الاستعمارية فقد

---

(١) ز.ي. هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط ، ترجمة مصطفى الحسيني ص٦٥–٧٠ ، عبد العزيز محمد عوض، الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤–١٩١٤ ، (القاهرة ١٩٦٩) ص ٢٧٨–٢٨٦.

(٢) يقول جوستورك : «ان التطورات العامة في القرن التاسع عشر في البلاد العثمانية ادت إلى نشوء طبقة برجوازية مرصوصة البنيان «كذا» وكانت ثروتها تقوم في الغالب على تملك الاراضي ولدرجة اقل على التجارة الخارجية وقد اصبحت تمثل العمود الفقري للنظام السياسي كما قادت فيما بعد النضال السياسي ضد الصهيونية وانصارها ولكن مصلحتها الذاتية املت عليها التصرف بشكل لايمس امتيازاتها» الابعاد الاقتصادية للمقاومة العربية ضد الصهيونية» مجلة مركز الدراسات الفلسطينية عدد ايلول– تشرين اول ١٩٧٧، ص ٥–٣٢. ولغرض البحث انظر ص١١.

(٣) حول نفوس الطائفة اليهودية ينسب د. عبد الوهاب الكيالي ، الموجز في تاريخ فلسطين الحديث((بيروت ١٩٧٣) ص١٧ ، إلى نائب القنصل البريطاني في القدس ان عدد اليهود في فلسطين(حوالي منتصف القرن التاسع عشر) كان(٩٧٠٠) نسمة. ويذكر فلاديمير لوتسكي ، في ص ١٥٨ ، من كتابه، تاريخ الاقطار العربية الحديث ان عدد اليهود كان (١١) الف نسمة وذلك حوالي منتصف القرن التاسع عشر ايضاً وان الكثير منهم اقاموا لاغراض دينية. اما يوسف الحكيم فيقول في ص ١٩٩ من كتابه سورية في العهد العثماني بان عدد اليهود كان (٢٠) الف نسمة منهم خمسة او ستة الاف في مدينة القدس وذلك في حوالي الثلث الاخير من القرن التاسع عشر .

ارتبطت فكرة نابليون لانشاء دولة يهودية في فلسطين (١) بخططه لاقامة امبراطورية استعمارية فرنسية في الشرق اواخر القرن الثامن عشر .
كما ارتبطت فكرة انشاء ارسالية دينية في القدس عام ١٨٤٩ (٢) من لدن الروس بمحاولات روسيا الاستعمارية في البلقان على حين اتضحت الاطماع الاستعمارية البريطانية في المشرق العربي عن طريق تشجيعها لخطط الاستعمار اليهودي في فلسطين(٣)ويذكر ان عددا من رجالات الاستعمار البريطاني كانوا قد وضعوا عام ١٨٣٨ جملة مشاريع لاسكان اليهود في فلسطين وانشاء دوله يهودية تحت الحماية البريطانية فحظيت تلك الخطط بتأييد بالمرستون (٤) رئيس الحكومة البريطانية بعد ان راى فيها ضمانا لامن المواصلات الامبراطورية . (٥) ومن جهة اخرى فقد كتب بالمرستون الى قناصل بريطانية كافة في غرب آسيا طالبا منهم تأييد حماية اليهود (٦) الذين زعم ان انكلترا ستسعى من اجل تحقيق

(١) يروى بأن نابليون اصدر عام ١٧٩٩ بياناً رسمياً دعا فيه يهود وآسيا وافريقيا ان يهرعوا تحت رايته إلى دخول القدس واعادة بناء الهيكل: انظر عمر عبد العزيز عمر ، بريطانيا وتصريح بلفور ، دراسة في نشأة القضية الفلسطينية، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ ١٩٧٣ ص ٢٣٦ – ٢٨٨ ولغرض البحث انظر ص ٢٥٩، يوسف هيكل، فلسطين قبل وبعد، ص ٨٤–٨٥.

(٢) في عام ١٨٤٣ عينت روسيا بازيلي قنصلا عاما في سورية بما فيها فلسطين ومنح صلاحيات جميع الوكلاء القنصليين في البلاد وكانت التعليمات التي لديه تقضي بانشاء علاقات وطيدة مع السلطات الكنسية كافة في جميع انحاء سورية وفلسطين، كما زود بتعليمات من اجل خدمة الحجاج الروس . ويقول القنصل البريطاني في القدس ان هولاء الحجاج الذين معظمهم من المحاربين القدماء كانوا يتحدثون عن اليوم الذي ستصبح فيه فلسطين تحت السيطرة الروسية. انظر :
Derek Hopwood,the Rassian Presence In Syria and Palestine 1843—1914.
Church and Politics In The Near East, Claredon press, Oxford 1969,pp.15-16.

(٣) لوتسكي: المصدر السابق، ص ٤٤، ١٥٨.

(٤) Viscount palmerstone راس الحكومة البريطانية عام ١٨٥٥ وكذلك عام ١٨٥٩. توفي في ١٨ اكتوبر عام ١٨٦٥.

(٥) لوتسكي، المصدر السابق، ص ١٥٨.

(٦) انظر المكاتبات بين السفارة البريطانية في الاستانة والباب العالي حول رعاية بريطانيا لليهود في فلسطين: د. خيرية قاسمية، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨–١٩١٨ (بيروت ١٩٧٣) ص٢٥.

عودتهم الى فلسطين ليكونوا عونا للانكليز على محمد علي باشا الذى بات خطره يهدد المصالح الامبراطورية. (١)

وبالرغم من استجابة بعض كبار المتمولين اليهود وتأيدهم لخطط بالمرستون الا ان انقسامات خطيرة نشبت من اليهود الغربيين والصهيونيين السياسيين وذلك حول الافاق والابعاد النهائية لعملية الاستيطان اليهودي في فلسطين .

ويفهم ان اولئك اليهود الغربيين من اللاصهيونيين او المعادين للصهيونية اعاقوا الى حدما تطور الفكر الصهيوني وذلك خلال القرن التاسع عشر ففي هذا المجال يقول بن هالبرن Ben Halpern

ان تاثير اليهود اللاصهيونيين واليهود المعادين للصهيونية واتجاهاتهم يجب ان تكون مفهومة في التحليل التاريخي الاجتماعي للفكرة الصهيونية السياسية (٢) .

ويقال ان مونتفيورى(٣)وروتشيد(٤) كانا يحبذان الاستيطان اليهودى في فلسطين والبلاد الاخرى التي لاتوجد فيها روح معاداة السامية بينما كان الصهاينة

---

(١) د. عمر عبد العزيز عمر، المصدر السابق، ص ٢٦٢ ويقول ابراهيم ابو لغد، تهويد فلسطين ص٤٥ بأن بالمرستون تاثر بنفوذ شافتزبري Shaftesbury (١٨٠١–١٨٨٥) وهو رجل مال يهودي شغل منصب مندوب هيئة الرقابة ورئيس اللجنة الصحية في القرم. ساند الاصلاح الاجتماعي واسهم في النشاط الخيري والديني.

(٢) The Idea of the Jewish State , London , Oxord University Press , 1961 p . 55 ,

(٣) مونتفيوري، كلود جوزف جولد سمث(١٨٥٨–١٩٣٨) وهو زعيم طائفة من يهود بريطانيا« اليهود المتحررين» ومؤلف عدد من الكتب. اسس المجلة اليهودية عام ١٨٨٨ وترأس تحريرها ومولها حتى عام ١٩٠٨. رئيس الجمعية اليهودية الانكليزية ١٨٩٥–١٩٢٠ عارض الصهيونية وهاجم وعد بلفور. انظر الملحق بالاسماء والمؤسسات في يوميات هرتزل، ص٥٤٢.

(٤). البارون ادمون دي روتشيلد(١٨٤٥–١٩٣٤). رئيس القسم المصرفي الفرنسي في عائلة روتشيلد. تبنى اوائل المستعمرات اليهودية في فلسطين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تنازل عام ١٩٠٠ عن ادارة المستعمرات إلى جمعية الاستعمار اليهودي. وفي عام ١٩٢٥ اسس « جمعية الاستعمار الفلسطيني اليهودي» لتشرف على المستعمرات. انتخب عام ١٩٢٩ رئيساً فخرياً للوكالة اليهودية. انظر الملحق بالاسماء والمؤسسات في يوميات هرتزل، ص٥٥١

يعتبرون فلسفة الاستيطان التي لاتودى إلى قيام دولة صهيونية امرا غير مقبول(١) يمكن القول ان ذلك الخلاف يعود في الواقع إلى ان الصهاينة السياسيين من البرجوازية الصناعية التي ساهمت في تقديم الخطط الاستعمارية المذكورة آنفاً . لم تكن قد استطاعت بعد صياغة وبلورة الصهيونية لتكون ايديولوجية قادرة على استقطاب اليهود كافة باعتبارهم الوسيلة التي تكون الصهيونية بدونها مشروعاً لاقيمة له في الواقع (٢) . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان صيغة الترابط العضوى بين الايديولوجية الصهيونية والايديولوجية الاستعمارية الحديثة لم تتكامل حتى وقت مبكر من القرن العشرين (٣) بعد احتضان دعوة هرتزل من الصهيونيين العمليين (٤) وما اعقب ذلك من انحسار دور المدرسة الصهيونية الروحية التي كانت تطالب بمركز روحي لليهود في فلسطين (٥) ان النتيجة المنطقية لهذا التطور تعني ان المدرسة الصهيونية العملية ستلتزم بدفع الهجرة اليهودية ذات الافق الايديولوجي المحدد باتجاه صهيوني يرتبط (٦) بمقاصد

(١) ابراهيم ابولغد ، المصدر السابق، ص ٤٥.

(٢) ويقال انه حتى عام ١٩١٤ كان من بين الثلاثة عشر مليون يهودي في العالم (١٣٠,٠٠٠) صهيوني فقط. انظر ألن تايلر، تاريخ الحركة الصهيونية، تحليل للدبلوماسية الصهيونية ١٨٩٧-١٩٤٧، ترجمة بسام ابو غزالة، ص٢٠.

(٣) انظر في هذا الموضوع شفيق الرشيدات، فلسطين تاريخاً وعبرة ومصيراً، ص٣٥-٤٤، ٤٥.

(٤) كانت وجهة نظر الصهيونيين العمليين تتلخص بضرورة المضي في المشاريع الاستعمارية الصهيونية اعتماداً على اساس سياسة الواقع« ان خلاص اسرائيل لن يتم عن طريق الدبلوماسية، وانما عن طريق الانجازات العملية. تاج السر احمد حران، فلسطين والتحديات الصهيونية، وسائل العمل الصهيوني ١٨٩٧- ١٩١٧، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ، المصدر السابق، ص ٤٥٣- ٤٨٤. ولغرض البحث انظر: ص ٤٧٢- ٤٧٤.

(٥) د. خيرية قاسمية، المصدر السابق، ص ٢٠.

(٦) على الرغم من الادلة القاطعة نفى وايزمان، ان تكون هناك علاقة بين مقاصد دول اوربا الاستعمارية وبين مسألة انشاء الوطن القومي الصهيوني وقال في هذا المعنى: « كثيراً مانسمع القول يتردد بأن وعد بلفور انما تم... لاسباب استعمارية او لما يشبهها من اسباب مبتذلة وكل ذلك كذب محض... ويرى جورج انطونيوس بأن قول وايزمان لايتفق والحقائق بل ولاحتى مع الرواية الموجزة الواردة في التقرير الذي نشرته سنة ١٩٢١ الهيئة التنفيذية للمنظمة الصهيونية، فقد جاء في ذلك التقرير ان تقدير القيمة الستراتيجية لفلسطين في نظر الامبراطورية البريطانية هو الذي كان له الوزن الراجح لدى من سعوا لاستصدار وعد بلفور. للمعلومات الاضافية انظر: كتابه الموسوم: يقظة العرب، ترجمة د. ناصر الدين اسد ود. احسان عباس، دار العلم للملايين، ط٤(بيروت ١٩٧٤)، ص ٣٧٠-٣٧٤

الاستعمار واهدافه التوسعية جاعلا من اسرائيل في النهاية ظاهرة استعمارية خطيرة (١) .

تعثر المساعي الصهيونية

كان المؤتمر الصهيوني الاول (١٨٩٧) قد تبنى دعوة هرتزل في برنامج محدد اطلق عليه برنامج بال وقد جاء في البرنامج بان هدف الصهيونيين هو انشاء وطن لليهود في فلسطين يضمنه القانون العام. ولتحقيق هذا الهدف يرى المؤتمر تطوير الاستيطان في فلسطين وتنظيم ودمج اليهودية على اسس مناسبة وتعزيز الشعور والوعي القوميين لدى اليهود واتخاذ خطوات تمهيدية من اجل الحصول على موافقة حكومية عند الضرورة لتحقيق اهداف الصهيونية(٢).

ورغم نجاح العناصر الصهيونية في تذليل العقبات الناجمة عن معارضة اليهود غير المؤيدين للصهيونية فقد واجهتهم جملة عقبات ومصاعب عاقت برامجهم بشأن الاستيطان والهجرة الصهيونية وتشكيل الدولة اليهودية .

١ — ان ظروف ونتائج التطور الرأسمالي في البلاد العثمانية ومنها بلاد الشام رغم بطئها النسبي ساهمت في خلق طبقة برجوازية ذات فكر واهداف قومية تقف على وجه التأكيد ضد الاطماع والمساعي الصهيونية في فلسطين (٣) .

٢ — لم يكن بوسع الصهاينة ضمان موافقة دولية جماعية لمشروع الدولة الصهيونية بسبب صعوبة التوفيق بين مصالح الدول الاستعمارية يومذاك (٤).

٣ — ان القوانين العثمانية مازالت تقف حجر عثرة بوجه العملتين الرئيسيتين اللازمتين لتنفيذ اي مخطط صهيوني وهما :

---

(١) انظر من اجل ذلك :—

The Palestine Question, Seminar of Arab Jurists on Palestine Algiens, 22 — 27 July, 1967 Translated from French by Edward Rizk, The Institute for Palestine Studies, Beirut 1968, PP . 35 — 36.

(٢) انظر حران، المصدر السابق، ص ٤٥٨

(٣) انظر الهامش رقم (٢) ص (٧٣).

(٤) انظر : يوميات هرتزل، اعداد انيس صايغ ترجمة هلدا شعبان صايغ، سلسلة كتب فلسطينية — ١٠ مركز الابحاث، منظمة التحرير الفلسطينية(بيروت ١٩٦٨)— الفصل الاول المرسوم هرتزل والاستعمار ص ١٧—٣٣٢.

آ— انتقال الاراضي إلى الاجانب في البلاد العثمانية .
ب — اقامة الاجانب في الدولة العثمانية .

والواقع ان الدولة العثمانية لم تقر اجراءات قانونية تخص قبول انتقال الاراضي إلى الاجانب حتى صدور نظام عام ١٨٦٧ الذي سمح لهم بتملك الاراضي في معظم أنحاء الدولة العثمانية (١) وفي الوقت نفسه حظرت القوانين العثمانية ١٨٥٦ و ١٨٨٢ و ١٨٩٣ و ١٨٩٩ انتقال الاراضي إلى اليهود بشكل خاص (٢) ، اما فيما يتعلق باقامه الاجانب في البلاد العثمانية فان السلطات العثمانية فرضت قيودا مهمة على دخول اليهود إلى فلسطين عام ١٨٨٨ كما انها قصرت دخولهم إلى فلسطين على اغراض الحج وحددت اقامتهم بثلاثة اشهر . وا صدرت الدولة العثمانية قانون الجواز الاحمر خاصاً باليهود الذين يدخلون فلسطين لغرض السياحة او الزيارة . (٣)

لقد وقفت الدولة العثمانية ضد المحاولات والجهود الصهيونية الرامية إلى استعمار فلسطين وان هذا الموقف يتجلى بشكل واضح في الجانب التشريعي الذي سبقت الاشارة اليه وفي الموقف الشخصي للسلطان عبد الحميد الذي انعكس بالضرورة على الموقف الرسمي للدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ايضا

نمط الحكم العثماني في فلسطين :—

كان السلطان والجهاز الادارى المؤلف من طبقة الموظفين الاداريين المدنيين والعسكريين يمثلون الطبقة المستغلة في المجتمع العثماني : وفي فلسطين كان كان الشعب العربي ينوء تحت وطأة الاستغلال الذي مارسته ضده تلك الطبقة ممثلة بملتزمي الضرائب والفرسان الاقطاعيين .

---

(١) عبد العزيز محمد عوض، المصدر السابق، ص ٢٣٤. وجدير بالذكر ان القانون منع الاجانب من تملك الاراضي في الحجاز فقط.

(٢) د. خيرية قلسمية، المصدر السابق، ص ٢٤—٢٥، ناجي علوش، الحركة الوطنية الفلسطينية امام اليهود والصهيونية ١٨٨٢—١٩٤٨، ص٧٧ .

(٣) جاسم محمد حسن، العراق في العهد الحميدي، اطروحة ماجستير غير منشورة بغداد ١٩٧٥ ص٦٧.

و « في ظل النظام العثماني ساد فلسطين النظام الاقطاعي فاحتكرت حفنه من عائلات فلسطين ملكية مساحات واسعة من الاراضي واستغلت طبقة الفلاحين المتخلفين . ومن الناحية السياسية كانت هذة العائلات متحالفة مع الطبقة العثمانية الحاكمة عبر علاقة المنافع المتبادلة والمصالح المشتركة وبالتالي فقد سيطرت تلك العائلات — طبقة الوجهاء — على المناصب الحكومية والدينية الهامة » (١) .

واذا كان لهذه الظروف الاجتماعية والاقتصادية مظاهرها السياسية حينما ضعف النظام الاقطاعي العثماني — فقد تجلت في ضعف سلطة الدولة على الولايات وانتشار الامارات الاقطاعية على امتداد الرقعة الجغرافية للدولة العثمانية، على ان النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد محاولات الدولة العثمانية لاستعادة هيمنتها وتعزيز سلطتها على الولايات التابعة لها وتصفية الامارات الاقطاعية كما عمدت إلى الغاء اساليب الجباية القديمة (٢) وهي الاساليب التي تمكن الاشخاص القائمين بعملية الجباية من تكريس وضع يتيح لهم السيطرة على الارض والانسان على حساب ايرادات الدولة. (٣) وعلى الرغم من ان الفضل في ذلك يرجع إلى تشريع الدولة لقوانين الاراضي والطابو ١٨٥٨، ١٨٥٩ ونظام الولايات ١٨٦٤ فان الابعاد الاجتماعية للقوانين الاخيرة بشكل خاص ارادت من ناحية اخرى اقرار صيغة التصرف بالارض على اساس الواقع القائم فعلا مما يجعلها ذات اثار اجتماعية بعيدة المدى، غير ان اخفاق الدولة العثمانية الذريع في تطبيق قوانين الاراضي لمصلحة المتصرفين الفعليين بالاراضي

(١) د. عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ط١، (بيروت ١٩٧٠) ص ٤٤—٤٥.

(٢) وهي الاساليب القائمة على طريقة الالتزام.

(٣) هرشلاغ، المصدر السابق، ص ٥٤.

ادى إلى تكريس ظاهرة الاستغلال والسيطرة على الارض والانسان من جديد ، مما كان له اسوأ الاثر على قدرات وامكانات الشعب العربي بعد ما زادت اهمية القوى الاجتماعية المستغلة وتعززت بدخول السلطان وكبار رجال الدولة في صفوف تلك الطبقة. وهكذا مثلما كانت اراضي الملاكين الاقطاعيين تشمل مساحات واسعة جداً من الاراضي في البلاد العثمانية فان مساحات واسعة من الاراضي واعدادا من القرى وهي الاملاك المعروفة في العراق وسورية وفلسطين بالاراضي السنية سجلت باسم السلطان عبد الحميد واستغلت لمصلحته الخاصة (١). هذا من ناحيةومن ناحية اخرى يمكن القول ان ذلك الاستغلال الذي كانت تمارسه تلك الطبقة كان في اطاره العام يدخل ضمن ما سمي بعملية اعتصار موارد وخيرات البلاد التابعة للدولة العثمانية لتصب في «المتروبول التركي»(٢)

يمكن للباحث ان ينظر إلى مسألة وراثة السلطان عبد الحميد للاراضي السلطانية وتسجيل مساحات كبيرة منها باسمه بالطابو من زاويتين مختلفتين الاولى ان سيطرته على الارض تعبر عن ظروف سيطرة القوى الاجتماعية المستغلة التي كانت الشعوب العثمانية تنوء تحتها . والثانية انها تعبر عن ادراك السلطان للاهمية الاستثنائية التي يمكن اعتبارها في حالة وجود املاك سنية في البلاد العثمانية بحيث يبرز دور اكبر للوجود العثماني . على انه قد يبدو امرا غريباً في بابه ان يحمل وجود السلطان ممثلا باملاكه السنية في فلسطين دورا يفوق الدور الطبيعي الذي يقتضيه المنطق والواقع على السواء.

والحقيقة انه مادامت السنية تمثل املاك الطابو المسجلة باسم السلطان عبد الحميد فان الدور الاقتصادى والاجتماعي لهذه الاملاك — ممثلا بطبيعة العلاقات الانتاجية الاقطاعية التي عملت على تعميقها نتائج تطبيق قوانين الاراضي والطابو في سورية وفلسطين — ينبغي ان يشابه بالضرورة الدور الاقتصادى والاجتماعي للاملاك المسجلة باسماء ملاكي المدن الذين

(١) عن الاملاك الهمايونية او السنية في سورية وفلسطين انظر:
عبد العزيز محمد عوض، المصدر السابق، ص ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) د. جمال حمدان، ستراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الهلال (القاهرة ١٩٦٨) ص٥٣.

استحوذوا على الاراضي وسيطروا على الفلاحين خاصة ان اراضي السنية استخدمت الاساليب عينها التي اتبعت في اراضي املاك الطابو .

ان الحالات غير المرضية والمؤثرات المتعددة التي عملتها الحكومة والتي حملت كثيرا من اصحاب الاملاك على تسليم اراضيهم بسهولة إلى السلطان عبد الحميد لقاء ماكانوا يؤدونه اليه من خمس المحصول هي نفسها التي دفعت اصحاب هذه القرى لتسجيل اراضيهم على بعض ال سرسق راجين انها ستبقى في تصرفهم مقابل مايسلمون لهم من خمس المحصول» (١)

وهكذا يجد الباحث ان السلطان عبد الحميد الذي وجد في السلطة اداة مكنته من انتزاع حقوق الفلاحين (٢) اضطر إلى التخلي عنها بعدما افلت زمام الامور من يده وهو موقف كان يتكرر باستمرار في تلك الحقبة من الزمن بسبب اضطرار — ملاكي الطابو إلى بيع حقوق الاراضي بأي ثمن حين وجدوا انفسهم عاجزين عن حماية الارض التي لم يعودوا ضامنين لمصلحتهم فيها في ظل موقف السلطة العاجزة عن عمل شي ما وهذه النتيجة قد تكون امرا مستحيلا عندما تجد تلك الحقوق من يريق الدماء من اجل الحفاظ عليها .(٣)

(١) انظر احتجاج اللجنة التنفيذية العربية على بيوع اراضي قضاء الناصرة (من قبل آل سرسق)، للصهيونيين وموقف الحكومة من حقوق المزارعين العرب فيها(١٩٢٤/٨/٢٥) يافا١٩٢٤/٩/٩ وثائق المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨–١٩٣٩، (بيروت ١٩٦٨)ص٨٥ .

(٢) يقول عبد العزيز عوض، المصدر السابق ص ٢٣٨ : « انه كان للسلطان(عبد الحميد) مزارع خاصه به في بيسان بفلسطين يشرف على ادارتها ضباط عسكريون، وكان السلطان يوجه اليهم الرتب والاوسمة بين الحين والاخر» وقد قال الكاتب عن هذه الظاهرة بأنها « تبدو غريبة ومتناقضة مع تسجيل الاراضي» وذلك لانها تقوم على اساس انتزاع حقوق الفلاحين ومع ذلك يرى البعض ان السلطان العثماني عبد الحميد كان ارحم ملاك في فلسطين، انظر عن ذلك شهادة عوني عبد الهادي امام اللجنة الملكية البريطانية(لجنة بيل) وثائق المقاومة الفلسطينية، المصدر السابق، ص٥٢١ .

(٣) وفي ذلك يقول جمال الحسيني في شهادته امام اللجنة الملكية البريطانية « يجوز (يمكن) تقسيم اراضي فلسطين إلى قسمين الاراضي التي يفلحها اصحابها والاراضي التي يفلحها مستأجرون ويملكها ملاكون اكثرهم من خارج البلاد، اما فيما يتعلق بالقسم الاول.فان الفلاح المالك في فلسطين شديد المحافظة على ارضه والتعلق بها ولهذا نرى ان الخوف من تسرب تلك الارض قليل جداً وعند العرب مثل يقول: الفلاح يموت بين اتلام ارضه». وثائق المقاومة المصدر السابق، ص٤٨٥ .

موقف السلطان عبد الحميد الثاني من النشاط الصهيوني في فلسطين

كان السلطان عبد الحميد الثاني رجل الساعة الذي انجبته مؤسسة السلطنة العثمانية فقد تمكن ان ينزل ضربة عنيفة بدعاة الدستور وعلى راسهم مدحت باشا واعوانه كما انه نجح في تعميق الصراع بين القوى الاستعمارية الاوربية خاصة بعد توطيد عرى الصداقة مع المانيا .

ومع كل تلك الجهود فان السلطان عبد الحميد لم يكن قادرا على ايقاف الزحف الاستعمارى الذي كانت الدولة العثمانية تتعرض له .

واذا كان في ذلك ميزة ايجابية فان ذلك يبدو إلى حد ما في ان الدولة العثمانية اصبحت اكثر قدرة على فرض سلطتها المركزية على الولايات العثمانية ناهيك عن وعي السلطان العثماني للاطماع الاستعمارية وادراكه لبعض المشاريع والخطط الموضوعة في هذا المجال . ومن جهة اخرى فقد كانت للسلطان عبد الحميد مطامحه حول بناء الدولة العثمانية والايفاء بتعهداتها.غير ان المخاطر الناجمة عن زيادة الديون الاجنبية (١) على الدولة العثمانية كانت تعرقل امال السلطان وتطلعاته. وفي هذه الاثناء بالذات كانت مظاهر النشاط الصهيوني في فلسطين ملحوظة كما حمل هرتزل إلى السلطان عبد الحميد استعداد الراسمال الصهيوني للمساهمة في حل المصاعب التي تعاني منها الدولة العثمانية .

ويعتبر موقف السلطان عبد الحميد من النشاط الصهيوني في فلسطين القضية الاكثر اهمية في هذه الدراسة لقد تعددت الاشارة إلى موقف السلطان عبد الحميد من الاطماع الصهيونية في فلسطين وتناقلت المصادر المختلفة(٢)رفض(٣) السلطان

---

(١) حول الديون الاجنبية على الدولة العثمانية انظر : هرشلاغ ، المصدر السابق ص٧٢–١٠٤.

(٢) انظر على سبيل المثال جاسم محمد حسن، المصدر السابق، ص ٦٧، الرشيدات، المصدر السابق ص٣٥، يوسف هيكل، المصدر السابق، ص٩٧، اكرم زعيتر، القضية الفلسطينية، ص ٤٣ .

(٣) يقدم د. تاج السر احمد حران حول هذه المسألة التحفظات الاتية :–

أ – ان السلطان عبد الحميد كان يخشى ان يؤدي انشاء كيان يهودي في فلسطين إلى تشجيع العناصر الاخرى في الدولة العثمانية على الانفصال في وقت كانت الدولة مهددة بانتشار المبادئ القومية بين مختلف عناصرها .

لعروض مالية كبيرة مقابل موافقته على مشروع يهدف إلى تمكين الحركة الصيونية الفتية من استعمار — فلسطين . لقد اعتمدت اغلب (٣) تلك المصادر على مارواه هرتزل حول نتائج اتصالاته الاولى بالسلطان «١٩حزيران ١٨٩٦».

(... لاأقدر ان ابيع ولو قدما واحدا من البلاد لانها ليست لي بل لشعبي . لقد حصل شعبي على هذه الامبراطورية باراقة دمائهم وقد غذوها فيما بعد بدمائهم وسوف نغطيها بدمائنا قبل ان نسمح لاحد باغتصابها منا . لقد حاربت كتيبتان من جيشنا في سورية وفلسطين وقتل رجالنا الواحد تلو الاخر في بلفنة لان احدا منهم لم يرض بالتسليم ، وفضلوا ان يموتوا في ساحة القتال .

=ب — ان هرتزل كان يعتمد في عروضه المالية التي وعد السلطان بها على الممولين اليهوديين هيرش وروتشيلد وان الاخرين لم يوافقا الاهداف السياسية لدعوة هرتزل وهكذا تكون عروض وانجازات هرتزل المالية وعوداً مهزوزة .

ج — على الرغم من محاولات هرتزل ابداء فروض الاحترام المقرونة بتأييد اليهود كرعايا مخلصين » للدولة العلية الا انه كان واضحاً ان هرتزل كان ينظر الى السلطان نظرة احتقار ولنظامه الازدراء ولم يكن خافياً عن السلطان مثلما لم تكن محاولات هرتزل لانشاء دولة يهودية تحت حماية احدى دول اوربا الطامعة بالدولة العثمانية خافية ايضاً، المصدر السابق ص ٤٦٤—٤٦٥.

(٣) نقلت د. خيرية قاسمية، المصدر السابق ص٤٠١—٤٠٣ صورة رسالة قالت عنها انها : « رسالة يقال ان السلطان عبد الحميد قد بعثها بعد خلعه من منفاه في سالونيك إلى الشيخ محمود ابو الشامات في دمشق(وهو استاذ السلطان عبد الحميد في الطريقة الشاذلية) ويذكر فيها عبد الحميد انه لم يتخل عن الخلافة الا لان الاتحاديين قد الحوا عليه بأن يصادق على تاسيس وطن قومي لليهود في الاراضي المقدسة(فلسطين) مع انهم وعدوه بتقديم (١٥٠) مليون ليرة انكليزية ذهباً».

ومن المرجح ان تكون الوثائق العثمانية حول هذا الموضوع مصدراً مهماً في تقويم الموقف العثماني. ويحدد الدكتور عبد الكريم غرايبة الوثائق العثمانية (وثائق يلدز) حول هذا الموضوع بالملفات ١٢٧، ١٧٧، ٢٦٩، ٣٣٤، ٧٧٠(من القسم الاداري) والملفات ٩٣، ٣٣٢، ٣٣٣، (من القسم السياسي) وتحتوي هذه الملفات على معلومات مهمة حول المستعمرات في البلاد العربية وهجرة اليهود من روسيا عام ١٨٨٩ وهجرة عام ١٨٩١ وهجرة اليهود والمسلمين من بولونيا وتضم الاضبارة ٣٣٢ وثائق تتحدث عن(مشروع اقامة مستعمرة يهودية والمؤتمر الصهيوني عام ١٨٩٨» «كذا» ويقول غرايبة بأن السلطات المسؤولة عن دار الوثائق لاتسمح بالاطلاع عليها. انظر وثائق يلدز كمصدر لتاريخ البصرة وخليجها والنشاط الاوربي في تلك المناطق، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ ، ص ٦٩٢— ٦٩٣

الامبرطوارية التركية ليست لي وانما للشعب التركي (١)
لااستطيع ابدا ان اعطي احداً اي جزء منها . ليحتفظ اليهود ببلايينهم
فاذا قسمت الامبراطورية فقد يحصل اليهود على فلسطين بدون مقابل. »

على انه مهما كانت حقيقة هذا الموقف اوتحفظات السلطان عبد الحميد في هذه المسألة فان من الصعب الجزم بان السلطان العثماني وقف ضد هجرة يهودية محددة في البلاد العثمانية (٢) كما انه لم يقف من مشاريع الاستيطان اليهودي في فلسطين موقفا حاسما وفي ذلك يقول بن هالبرن

«لقد كان السلطان متحفظا في مساومة هرتزل لقد قرر انه عندما يجهز الصهاينة القرض اولا فانه سينظر بروح ودية الى مشروع الامتيازات الصهونية Jewesh Oetoman Land Company المقترحة»(٣) عليه يمكن ان يرجح في هذه المسألة ان السلطان العثماني الذي استطاع ان يكتشف الافق الايديولوجي الصهيوني المرتبط بحركة الاستعمار الحديث(٤)، قد اخفق في ادراك ابعاد العلاقة بين الحركة الصهيونية والهجرة اليهودية (٥) وهما حركتان سارتا في بداية الامر في خطين متوازيين غير ان الدلائل اثبتت فيما بعد بان الايديولوجية الصهيونية المرتبطة بالاستعمار قد تمكنت من استثمار الهجرات اليهودية لمصلحتها مستغلة ظروف اليهود السيئة ونفسية المهاجرين المتعبة .

(١) انظر، يوميات هرتزل، المصدر السابق، ص ٣٥.

(٢) نسب إلى هرتزل قوله بان السلطان وعده بالسماح باقامة مستعمرات يهودية في العراق وفي سنجق عكا عن طريق فتح باب الهجرة اليهودية إلى تلك الاقاليم . انظر :
د. تاج السر احمد حران المصدر السابق، ص٤٦٦ – ٤٦٧.

(٣) وجدير بالذكر ان الحدود العليا لقيمة القرض الذي زعمت الدوائر الصهيونية انها ستقدمه للسلطان العثماني بلغت (٢٦) مليون ليرة عثمانية .

(٤) د. عمر عبد العزيز عمر ، المصدر السابق، ص ٢٦٩، فقرةج هامش رقم (٣)ص٨٢ (تحفظات د. تاج السر احمد حران) المصدر السابق، ص ٤٦٤ – ٤٦٥.

(٥) انظر الهامش رقم ٢ ص٨٧ . ويذكر ان السبب الرئيس لخروج تلك الهجرات اليهودية يعود إلى اضطهاد اليهود في روسيا ونزعة المعادات للسامية في عموم اوربا تقريباً .

وفي مقابل ذلك ادى اعتماد الباحثين لموقف السلطان عبد الحميد الثاني المشار اليه سابقاً والموقف الرسمي المتمثل بالقوانين العثمانية التي قيدت دخول اليهود إلى فلسطين إلى :

١ ــ ان السلطان عبد الحميد الثاني اعتبر مناهضاً للصهيونية رغم وجود ملاحظات صهيونية تشير إلى تعاطفه .

٢ ــ تزكية الدولة العثمانية من المسؤولية التي تتحمل ادارتها في فلسطين جانباً منها في قضية الاستيطان اليهودي ــ والصهيوني في فلسطين .

ففي المسألة الاولى ادانت ملاحظات صهيونية ــ توازى في اهميتها الملاحظات التي نسبت إلى السلطان العثماني حول موقفه من الاستيطان الصهيوني في فلسطين ــ السلطان العثماني عبد الحميد الثاني والدولة العثمانية لتعاطفها مع الصهيونية فقد اشار « ٢٥ ، ٢٧ حزيران ١٨٩٦ » هرتزل إلى ان عزت(١)او السلطان مستعد أن يسمح بفلسطين شرط ان توجد الصيغة المناسبة (٢) ونقل ايضا « وذلك بواسطة» نيولنسكي (٣) قولا مبتذلا جاء فيه :

«ان الاتراك (كذا) راغبون في اعطائنا فلسطين ... وان وضع الاتراك في هذه المسألة هو عين مايحصل للرجل عندما يحس ان المرأة مستعدة ان تستسلم له »(٤) .

---

(١) عزت باشا العابد، سياسي عربي من دمشق لمع نجمة ايام السلطان عبد الحميد. كان(عزت بك) سكرتيراً للسلطان إلى ان نال الباشوية عام ١٩٠٢ واصبح وزيراً. كان قوى النفوذ وصاحب سطوة على السلطان، عرف بالفساد والرشوة هرب من تركية عام ١٩٠٨. انظر: الملحق بالاشخاص والمؤسسات في: يوميات هرتزل، ص ٥٢٩.

(٢) يوميات هرتزل المصدر السابق، ص ٣٦.

(٣) فيليب مايكل دي نيولنسكي (١٨٤١-١٨٤٦). صحافي وعميل سياسي نمساوي من اصل بولوني عمل مسؤولا عن الادارة السياسية في السفارة النمساوية في الاستانة واصبح صديقاً للسلطان عبد الحميد ترك العمل الديبلوماسي عام ١٨٧٩ واقام في باريس كصحافي في ١٨٨٧. اسس وكالة انباء في فينا واصدر نشرة(بريد الشرق) اليومية. الملحق بالاشخاص ، يوميات هرتزل ص ٥٤٥.

(٤) يوميات هرتزل، المصدر السابق، ص ٣٦.

ويقول هرتزل ايضا «٢٦تموز ١٨٩٦» «كنت في القسطنطينية حيث حصلت على نتائج اذهلتني انا ايضا . اخذ السلطان علما بمشروعي « فلسطين لليهود» ومع انه يعارض فكرة البيع عاملني بامتياز من عدة نواح وجعلتني افهم انه ، يمكن عقد الصفقة اذا وجدنا الصيغة المناسبة ... وقد قدم العرض التالي من حاشية السلطان : يدعو السلطان اليهود بحفاوة للعودة إلى وطنهم التاريخي . وليستقروا هناك بحكم ذاتي مستقلين اداريا وتابعين للامبراطورية التركية ، ومقابل ذلك يدفعون ضريبة »(١) ويذكر ايضا ان هرتزل كتب إلى السلطان عبد الحميد «٢٢ تشرين الاول ١٨٩٦» بمناسبة تسلمه براءة الوسام الذي منحه السلطان اليه فقال : ـ

« حينما يسر جلالتكم ان تقبلوا خدمات اليهود
سيسعدهم ان يضعوا قواهم تحت تصرف
ملك عظيم مثلكم . »(٢) .

ومن ناحية اخرى ثبت بالدليل التاريخي ان القوانين والتشريعات الخاصة بمنع انتقال الاراضي إلى الاجانب (اليهود) او اقامتهم في فلسطين والتي سبقت الاشارة اليها لم تؤد مفعولها بشكل دقيق فقد سارت عملية بناء المستعمرات في فلسطين على قدم وساق ونجحت الجماعات اليهودية اولا ثم الحركة الصهيونية بعدها في تشييد عدد ليس بالقليل من المستعمرات خلال عهد السلطان عبد الحميد وبضع سنوات تلت خلعه (٣) وقد بلغ مجموع تلك المستعمرات (٤٧) مستعمرة كما بلغت مجموع مساحة الاراضي التي تملكها اليهود منظمات وافراد

(١) المصدر السابق، ص ٤٣-٤٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٦.

(٣) اظهرت الدوائر الصهيونية ابتهاجها لعملية اقصاء السلطان عبد الحميد التي جرت في العام التالي للانقلاب الشماني ١٩٠٨. واذا كان من الثابت تاريخياً نفوذ اليهود وبعض المتعاطفين مع الحركة الصهيونية على اعضاء جماعة الاتحاد والترقي يمكن القول او حتى التسليم بان قضية الوطن الصهيوني ستجد اذنا اكثر اصغاء مادام الامر اصبح لايتعلق بعاتق شخص واحد كما كان في السابق. انظر حول ابتهاج الدولة الصهيونية وتغلغل اليهود والصهاينة في جماعة الاتحاد والترقي: د. خيرية قاسمية، المصدر السابق، ص ٣١ وما بعدها.

حوالي (٦٥٠) الف دونم من اجود الاراضي اما عدد المهاجرين فقد زاد على (٦٠) الف مهاجر (١) ويشير إلى ظاهرة تفاقم الهجرة اليهودية إلى فلسطين في عهد السلطان عبد الحميد احد المعنيين فيقول :

« ورغم تنبه عبد الحميد ووعيه لاخطار الصهيونية
شهد عهده تتابع موجتين من موجات التهجير
اليهودى إلى فلسطين . بدأت اولاهما عام ١٨٨٢
واستمرت حتى عام ١٩٠٤ ، وحملت معها مابين .
عشرين وخمسةوعشرين الف مهاجر ، غالبيتهم .
من اليهود الروس ، سكنوا القدس والخليل وصفد
وطبرية وبدأت الثانية عام ١٩٠٤ (٢) واستمرت حتى عام
١٩١٣ اي بعد نهاية حكم عبد الحميد باربع سنوات
وحملت من يهود روسيا مابين ثلاثين واربعين الفاً (٣) »

وهكذا لم ينقطع التسلل الصهيوني الى فلسطين طوال عهد السلطان عبد الحميد الذي انتهى برصيد صهيوني جيد على صعيد بناء الوطن القومي الصهيوني ،وبانية اساساً يمكن ان يعتمد عليه حين صدور وعد بلفور المشؤوم «١٩١٧/١١/٢» من الجدير بالذكر ان يشار هنا الى الخطأ الذي يقع فيه بعض المؤرخين

---

(١) انظرد . يوسف عبد الله صايغ،الاقتصاد الاسرائيلي ، ط٢ (القاهرة ١٩٦٦) الاحصائية رقم (١) ص ٤٤ ، عادل احمد الجادر ، اثر قوانين الانتداب البريطاني في اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين، (بغداد ١٩٧٦) ص ١٨٥.

(٢) يذكر Nadav safran ان معظم المهاجرين اليهود في الموجتين الاولى والثانية البالغ عددهم (٢,٥) مليون مهاجر غادروا من روسيا خلال الفترة ١٨٨٢-١٩١٤ وقد هاجر معظمهم إلى الولا يات المتحدة الامريكية اما الباقون فقد توزعوا على الاقطار الاخرى غير الاوربية ويؤلف الذين استوطنوا منهم في فلسطين نسبة قدرها ٣٪من مجموع المهاجرين وان نصف هؤلاء وصلوا بعد عام ١٩٠٤.
The United States and Israel , Harvard University press Cambridge Massachusetts , 1963 ' P. 67.

(٣) د. عمر عبد العزيز عمر، المصدر السابق، ص ٢٦٩-٢٧٠.

وهو خطأ يقوم على التقليل من اهمية ماتم من عمل صهيوني خلال العهد العثماني (١) . ومما يقال في هذا الصدد ايضاً ان (٦٥٠) الف دونم التي حازها اليهود لاتشكل غير ٢ ٪ من مجموع مساحة فلسطين كما ان (٦٠) الف مهاجر لايمثلون غير ٧٪ من مجموع سكان فلسطين (٢) . اما الـ (٤٧) مستعمرة صهيونية فلا قيمة لها امام العمران العربي في فلسطين .

في اعتقادي ان هذه القضية محتاجةالى اعادة نظر وذلك بناء على الاسس الآتية

١ — ان مجموع مساحة الاراضي التي استولى عليها المهاجرون حتى قيام الحرب العالمية الاولى لاتقاس نسبتها الى مجموع مساحة فلسطين وانما مجموع مساحة الاراضي المعمورة فيها وقيمتها قياساً على قيمة الاراضي المعمورة عموماً (٣) .

٢ — ان مجموع اعداد المهاجرين اليهود والصهاينة الى فلسطين لاتقاس نسبتهم الى مجموع السكان العرب الفلسطينيين وانما على اساس نسبة المستوطنين اليهود كأشخاص اجانب الى المجموع الكلي للمقيمين من غير الفلسطينيين الذين دخلوا فلسطين في الفترة نفسها والذين يدينون بديانات اخرى غير اليهودية .

٣ — ان تقويم العمران الصهيوني لايقاس الى العمران العربي الذي يمتد عمره

---

(١) انظر عل سبيل المثال: لوتسكي ، المصدر السابق ص ٤٦٧ ، الرشيدات المصدر السابق ص٥٤.

(٢) يخطئ شفيق الرشيدات ، المصدر السابق ص٥٤ في قوله« ولم يكن فيها انذاك اكثر من (٥٠) الف مواطن يدينون بالديانة اليهودية..» لقد كان معظم هؤلاء اليهود اجانب ولايمتلكون صفة المواطنة ابداً، ويؤيد هذه الحقيقة ماادلى به طلعت باشا عام ١٩١٨ تعقيباً على وعد بلفور اذ قال : « ان اية قيود ادارية فرضتها الحكومة العثمانية على الاستيطان اليهودي يعود إلى سياسة روسية القيصرية التي اجبرت اليهود المهاجرين من روسية على الاحتفاظ بجنسيتهم الروسية مما ادى بموجب نظام الامتيازات إلى بقائهم تحت السلطة القضائية للسلطات القنصلية الروسية. للتوسع في ذلك انظر:

د. خيرية قاسمية ، المصدر السابق، ص ٢٨٥.

(٣) يشير يوسف صايغ بوضوح إلى ارتفاع قيمة الاملاك الاقتصادية لليهود والصهاينة في فلسطين انظر: كتابه السابق الذكر ص ٧٥—٧٦.

آلاف السنين وانما بالظروف المادية المكانية والزمانية المتيسرة امام هؤلاء المهاجرين المستوطنين للحصول على العمران المذكور.

ان تصور هذه الافتراضات يمكن ان يعطي صورة اكثر دقة للموقف العثماني ممثلا بالسلطان عبدالحميد او السلطات العثمانية من الاستعمار الصهيوني والهجرة الصهيونية الى فلسطين . اذن ان نسبة الاراضي التي استولى عليها اليهود والصهاينة خلال الفترة المشار اليها سابقاً ستزداد أذا ما قورنت بمساحة الاراضي المعمورة.

ان الاراضي الصالحة للزراعة في فلسطين تقل عن (٣٠٪) من جملة مساحة فلسطين ، او بحدود ستة ملايين ونصف المليون دونم (١) وان معظم — حوالي ٨٧٪ من الاراضي التي يملكها اليهود والصهاينة يقع في البقاع الصالحة جداً للزراعة(٢)وهكذا يمكن تقدير نسبة ما حصل عليه اليهود والصهاينة الى مجموع الاراضي الصالحة للزراعة حتى الحرب العالمية الاولى بـ ١ : ١٠ مع الملاحظة بان اولئك المتملكين لتلك الاراضي اجانب .

وتتضح خطورة ما انجز من عمل يهودي وصهيوني للاستحواذ على الاراضي خلال الفترة المشار اليها ايضاً عند مقارنة مجموع مساحة ما استحوذ عليه اليهود والصهاينة بمجموع مساحة الاراضي التي استحوذوا عليها حتى عام ١٨٨٢ والبالغة (٢٥) الف دونم فقط (٣) حيث قفز هذا الرقم خلال حكم السلطان عبد الحميد والسنوات التي اعقبت خلعه وفقاً للصورة التالية : (٤)

---

(١) جاء ذلك في تقرير الخبير البريطاني في شؤون الاراضي السرجون هوب سمبسون الذي نشر عام ١٩٣٠ واكد بأن الاراضي القابلة للزراعة في فلسطين لم تكن تزيد على (٦,٥) مليون وليس (١٦) مليون رونم لما يشيع الصهاينة وهذا يعني عدم كفاية الارض للعرب.
كما انه ليس هناك متسع من الاراضي للمهاجرين الصهاينة. انظر :
الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ٢٥٨، ٢٥٩.

(٢) صايغ، المصدر السابق، ٣٩.

(٣) A Handbook To The Palestine Question, Questions And Answers By Ibrahim Al Abid, Books – No.17, Palestine Liberatine Organization Research center, Beirut, 1969. P 25.

(٤) Ibid. P. 25.

السنة	مساحة الاراضي المستولى عليها
حتى عام ١٨٨٢	(٢٥) الف دونم
١٨٩٠	(١٠٧) الف دونم
١٩٠٠	(٢٢٠) الف دونم
١٩١٤	(٤٢٠) الف دونم

وهذا يعني ان مساحة الاراضي التي تملكها اليهود والصهاينة قد تضاعفت بنسبة مئوية قدرها ٤٢٨٪ و٢٠٥٪ و١٩٠٪ على التوالي ، وذلك خلال الفترة المعنية وتبرز خطورة تلك الزيادات عندما تقارن مع مجموع مساحة الاراضي المعمورة والصالحة للزراعة البالغة (٦,٥) مليون دونم أذا أنها ستكون ٠,٣٨٪ ، ١,٦٤٦٪ ، ٣,٥٣٨٪ ، ٦,٤٦١٪ وأخيراً ١٠٪ عند الحرب العالمية الاولى كما سبقت الاشارة .

ومن ناحية أخرى فان تدفق المهاجرين اليهود والصهاينة الى فلسطين في عهد السلطان عبد الحميد وست سنوات من حكم الاتحاديين قد أدى الى مضاعفة عدد اليهود الى حوالي عشرة امثال ما كانوا عليه قبل عام ١٨٨٢ اي بنسبة قدرها ١٠٠٠٪ خلال (٤٢) عاماً . ففي الوقت الذي قدر فيه القنصل البريطاني في القدس عدد افراد الجالية اليهودية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بـ(٩٧٠٠) نسمة (١) ، اشارات احصائيات اخرى الى تقديرات مرتفعة نسبياً لعدد اليهود عشية الحرب العالمية الاولى فقد قدر لوتسكي عددهم بـ(٩٠) الف نسمة (٢) . ونسب ابراهيم العابد الى تقرير رسمي صادر عن حكومة فلسطين « Asurvey of Palestine 1945 - 1946 » بان عدد اليهود في فلسطين انخفض في زمن الحرب (عام ١٩١٨)الى(٥٦) الف بعد أن كان (٨٥) الف

(١) الكيالي، الموجز في تاريخ فلسطين، ص ١٧.
(٢) لوتسكي، المصدر السابق، ص ٤٦٧.

نسمة قبل بدء الحرب(١). اما عبد الرؤوف سليم فينسب الى William Polk قوله بان عدد اليهود كان يتراوح بين (٩٠) الف الى (١٠٠) الف نسمة (٢). ولتقويم العمران الصهيوني في فلسطين في اواخر العهد العثماني يمكن القول ان ذلك العمران يمثل دون شك اقصى مايمكن ان تقدمه الجهود الصهيونية لاولئك المستوطنين قياسا الى الطاقات والامكانات البشرية المتوفرة لليهود والصهاينة في فلسطين . فقد نقل عن بعض المراجع ان مجموع الاموال التي انفقها البارون روتشيلد وحده في اعمال بناء فلسطين كانت تقدر بـ (١٥) مليون جنية فلسطيني وفي مرجع آخر (٢٠) مليون دولار وفي مرجع ثالث انها تتراوح بين (٦٠) مليون فرنك فرنسي (٣) .

وقد انعكس هذا الاتفاق السخي على اعمال بناء المستعمرات بطبيعة الحال، وتقدم العمران الصهيوني في فلسطين بشكل لافت للنظر، لقد ارتفع عدد المستعمرات خلال السنوات ١٨٨٢ ، ١٨٩٠ ، ١٩٠٠ ، ١٩١٤ من [٥] مستعمرات فقط الى ١٤، ٢٢، ٤٧، على التوالى (٤) اي بنسبة مئوية قدرها ٢٨٠٪ و ١٦٠٪ و ٢٢٠٪ وعلى التوالى ايضا .

لقد استفادت الصهيونية من الانحلال العام الذي كانت تعاني منه الدولة العثمانية وذلك في ممارسة شتى الضغوط على السلطان والحكومة العثمانية كما كان الجهاز الاداري العثماني في احايين عديدة اداة طيعة بيد الصهاينة . فقد كثرت الاشارة إلى النشاط الصهيوني ايام ولاية متصرف القدس أحمد رشيد بك ١٩٠٤—١٩٠٦ الذي يقال عنه بأنه« ايد الهجرة اليهودية » علانية كما انه ضرب القوانين التي اصدرتها الدولة العثمانية بشأن منع الهجرة

---

(١) Ibrahim Al -- Abid. op. Cit. pp. 48,53

(٢) محمد عبد الرؤوف سليم، المصدر السابق، ج١، ص ١٧٠.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص ٢٣، انظر ايضاً يوميات هرتزل، الملحق بالاشخاص، ص ٥٢١.

(٤) د. يوسف صايغ، المصدر السابق، الاحصائية المشار اليها سابقاً، ص ٤٤.

اليهودية والاستيطان الصهيوني في فلسطين عرض الحائط (٥) فكان لتلك الظروف نتائجها الخطيرة على مستقبل فلسطين وعروبتها .

---

(٥) الياس سعد، الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة، ص ١٧-١٨؛ عمر عبد العزيز عمر، المصدر السابق، ص٢٧٠.

الخاتمة :

في ضوء النتائج التي امكن الوصول اليها يمكن القول ان عهد السلطان عبدالحميد ١٨٧٦ – ١٩٠٨ شهد تطوراً ملحوظاً للاستعمار الاستيطاني الصهيوني حيث يمكن تصوره كما يأتي :

١ – زيادة مساحة الاراضي التي استحوذ عليها اليهود والصهاينة .

٢ – سجلت احصائيات الهجرة ونمو العمران المادي زيادة ملحوظة .

وقد حاول الباحث تقويم تلك الزيادات في ضوء معايير جديدة وذلك من اجل الوصول الى نتائج جديدة . ومن ناحية اخرى فقد اشار البحث الى تأثر عدد من رجال حكومة السلطان وحاشيته بالضغوط الصهيونية (١) كما اوضحت بعض المصادر مدى ماكانت تعانيه الادارة العثمانية في فلسطين من فساد مما كان لذلك تأثيره الخاص على شل القوانين العثمانية اذ اصبحت حبراً على ورق .

ان الباحث وهو ينظر باعجاب الى صمود شعبنا العربي في فلسطين منذ بدء المؤامراة (٢) . بامكاناته المحدودة التي اضعفتها ظروف الاستغلال والقهر يرى : ان للاراء والوقائع التاريخية المذكورة اهمية ملحوظة في تقويم الموقف العثماني من الاطماع الصهيونية الاستيطانية في فلسطين .

---

(١) انظر على سبيل المثال مانقله هرتزل حول هذا الموضوع ص ٣٥–٣٦، ٤٣–٤٤.

(٢) انظر من اجل ذلك ناجي علوش، المصدر السابق، الفصل الاول الموسوم « خلفية الصراع العربي الصهيوني ١٨٨٢–١٩٤٨ ص ١١–٧٢، الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ص٤٨–٤٩، ٥٠ خيرية قاسمية، المصدر السابق ص ٣١ وما يلي ذلك في مواضع متعددة من كتابها سابق الذكر، يوسف الحكيم المصدر السابق، ص ٢٤٩– ٢٥٠.

ABSTRACT

The relation between Imperialism and Zionism has been the object of research and study by scholers and authors. The present study treat of that relation, for it is the important basis for the understanding of the political stand point of the ottoman Empire (as respresented in the person of the Sultan and in the Government) towards the attempts to colonized Palestine and to establish a ((Jewish homeland)) therin.

As for the s ate of affairs in the Arab Palestine community , which gravely declined and betrayed its inability to confront effectively the nasoent Zionist activety, the reader is able to conclude the responsibility of the Ottomans for the consolidation of Zionism in Palestine on to score of their policy of oppression and the deliberate impoverishment of the Arab people.

المصادر

١ ــ ابو الغد ابراهيم (اعداد)، تهويد فلسطين، ترجمة د. اسعد زوق (بيروت ١٩٦١) .

٢ ــ انطونيوس ، جورج يقظة العرب ترجمة د. ناصر الدين اسدد . احسان عباس (بيروت ١٩٧٤) .

٣ ــ تايلر ، الن ، تاريخ الحركة الصهيونية ، تحليل للدبلوماسية الصهيونية ١٨٩٧ ــ ١٩٤٧ ترجمة بسام او غزالة (بيروت ١٩٦٦) .

٤ ــ الجادر ، عادل احمد اثر قوانين الانتداب البريطاني في اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين (بغداد ١٩٧٦) .

٥ ــ جوستورك الابعاد الاقتصادية للمقاومة العربية ضد الصهيونية، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ، العدد (٢٤) ايلول = تشرين الاول ١٩٧٧ .

٦ ــ حران ، تاج السر احمد د. فلسطين والتحديات الصهيونية وسائل العمل الصهيوني ١٨٩٧ ــ ١٩١٧ من بحوث المؤتمر الدولي للتا يخ ــ بغداد ١٩٧٣ ، وطبعت وزارة الاعلام العراقية بحوث المؤتمر في كتاب واحد (بغداد ١٩٧٤) لاغراض البحث انظر ص ٤٥٣ ــ ٤٨٤.

٧ ــ حسن ، جاسم محمد ، العراق في العصر الحميدي ، اطروحة ماجستير غير منشورة ، (بغداد ١٩٧٥) .

٨ ــ الحكيم ، يوسف ، سورية في العهد العثماني، (بيروت ١٩٦٦).

٩ ــ حمدان ، جمال د.، ستراتيجية الاستعمار والتحرير ، دار الهلال (القاهره ١٩٦٨) .

١٠ ــ الرشيدات ، شفيق ، فلسطين ، تاريخاً وعبرة ومصيراً ، (بيروت ١٩٦١).

١١ ــ سعد، الياس، الهجرة اليهودية الى فلسطين المحتلة (بيروت ١٩٦٩)

١٢ – سليم ، محمد عبدالرؤوف ، تاريخ الحركة الصهيونية الحديثة ١٨٩٧ – ١٩١٨ معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة ١٩٧٤) جزءان.

١٣ – صايغ ، انيس ، (اعداد) ، وهلدا شعبان . ،(المترجمة) يوميات هرتزل ، سلسلة كتب فلسطينية – ١٠. مركز الابحاث منظمة التحرير الفلسطينية (بيروت ١٩٦٨) .

١٤ – صايغ ، د. يوسف عبدالله ، الاقتصاد الاسرائيلي ، ط٢. (القاهرة ١٩٦٦) .

١٥ – علوش ، ناجي ، الحركة الوطنية الفلسطينية امام اليهود ١٨٨٢ – ١٩٤٨ (بيروت ١٩٧٤)

١٦ – عمر، د.عمر عبدالعزيز ، بريطانيا وتصريح بلفور ، دراسة في نشأة القضية الفلسطينية من بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ ١٩٧٣ طبع وزارة الاعلام ١٩٧٤ ص ٢٣٦ – ٢٨٨ .

١٧ – عوض عبدالعزيز محمد ، الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ – ١٩١٤ .
(القاهرة ١٩٦٩) .

١٨– غرايبة ، عبدالكريم،وثائق يلدز كمصدر لتأريخ البصرة وخليجها والنشاط الاوربي في تلك المناطق بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ بغداد ١٩٧٣ وزارة الاعلام ١٩٧٤ ص ٦٨٨ – ٧٠٥ .

١٩ – قاسمية ، د. خيرية ، النشاط الصهيوني في الشرق العربي وصداه ١٩٠٨ – ١٩١٨ (بيروت ١٩٧٣) .

٢٠ – الكيالي د. عبدالوهاب ، تاريخ فلسطين الحديث ، ط١ ، (بيروت ١٩٧٠) .

٢١ – الكيالي ، د. عبدالوهاب ، الموجز في تاريخ فلسطين الحديث (بيروت ١٩٧٣) .

٢٢ – الكيالي د. عبدالوهاب ، (جمع وتصنيف) ، وثائق المقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨ – ١٩٣٩ ، (بيروت ١٩٦٨) .

٢٣ – لوتسكي ، فلادمير، تاريخ الاقطار العربية الحديث ، موسكو ،

٢٤ – هرشلاغ ، ز.ي. مدخل الى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الاوسط ، ترجمة مصطفى الحسيني (بيروت ١٩٧٣) .

٢٥ – هيكل يوسف، فلسطين قبل وبعد ، (بيروت ١٩٧١)

26- Al Abid , Ibrahim , A Handbook to the Palestine Question , Questions and Answers, Palestine Books No ' 17 Palestine Liberation Organization Research Center, (Beirut, 1969).

27-- Pen Halbpern, The Idea of the Jewish state (London , Oxford University press 1961).

28- Hopwood , Derek , The Russian Presence In Syria and Palestine 1843-1914 , Church and politics in the Near East ,Claredon press (Oxford ,1969).

29- Rizk , Edward , (Tran . from French) , The Palestine Question , Seminar of Arab Jurists an Palestine Algiers, 22-27 July ,1967 , The Institute for Palestine Stydies , (Beirut ,1968).

30- Safran , Nadav , The United States and Israel , Harvard University press Cambrigdge (Massachusetts , 1963).